ASOS JOURNAL

The Journal of Academic Social Science

Akademik Sosyal Araştırmalar Dergisi, Yıl: 8, Sayı: 105, Haziran 2020, s. 394-405

ISSN: 2148-2489 Doi Number: <http://dx.doi.org/10.29228/ASOS.42994>

Yayın Geliş Tarihi / Article Arrival Date
21.04.2020

Yayınlanma Tarihi / The Publication Date
29.06.2020

Mahmoud IZOLI

Sakarya Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, İslam Ekonomisi ve Finansı Bölümü, Yüksek
Lisans Öğrencisi
mahmoud.mhd.izoli@gmail.com
mahmoud.izoli@ogr.sakarya.edu.tr

الفكر الاقتصادي عند مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد من أين يبدأ؟

الملخص

يتألف المقال من ملخص باللغتين العربية والإنكليزية واثنى عشر عنواناً رئيسياً وخاتمة. يبدأ بلمحة بسيطة عن حياة المفكر بن نبي وفكره، ثم يبدأ بمناقشة أفكاره في كتاب (المسلم في عالم الاقتصاد) محاولاً بذلك الإجابة على ثلاث أسئلة رئيسية وهي من أين؟ وكيف؟ ومتى؟ يبدأ المسلم في عالم الاقتصاد. طرح الباحث صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم، شرح مفهوم كل من (الاقتصاد) و(الاقتصادانية)، ليشرح بعد ذلك سؤالاً هل الصناعة أولاً؟ وماذا عن الندرة!. يناقش الباحث فيما بعد مفهوم (الحضارة) و (الاقتصاد) والعلاقة بينهما، ليشرح بعدها المعنى الدقيق لرأس المال، ثم يحاول تبيين الفرق بين كل من الإمكان المادي والاجتماعي من خلال عرض فرضية إعادة بناء مدينة نيويورك. تحدث الباحث عن مبادئ الحركة الاقتصادية، مفهوم (الإنتاج) و(التوزيع) في إطار ما يسمى بالموروث الثقافي، شرح فيما بعدها معادلات الواقع الإنساني، ثم يطرح الباحث ثنائية السماء والتراب وما بينهما، ليضع في النهاية الإجابة على الأسئلة التي حاول أن يجيب عنها في خاتمة المقال.

الكلمات المفتاحية: الفكر الاقتصادي، التنمية الاقتصادية، المسلم في عالم الاقتصاد، ابن نبي.

THE MUSLİM IN THE WORLD OF ECONOMY, FROM WHERE START? ECONOMIC THOUGHT OF MALİK BİN NABİ

Abstract

The article consists of a summary in Arabic and English, twelve headlines and a conclusion. Started with a simple overview about bin Nabi, discussing (The Muslim in the word of economy) book ideas, trying to answer three main questions, where? how? and when? A Muslim must be start in the world of economy. The researcher presented the current economic relations in the world, explaining the concept of (economic) and (economism), asks is industry first? And what about the scarcity! Discusses the concept of (civilization) and (economic) and the relationship between them, explain the exact meaning of capital, tries to show the difference between (financial) and (social) possibility by presenting the hypothesis of rebuilding New York City, talked about the principles of economic movement, (production) and (distribution) within cultural legacy framework, explained equations of human reality, raises the duality of sky and soil and what is between them, finally put the answer to the questions that he tried to answer in the conclusion of the article.

Keywords: Economic Thought, Economic Development, The Muslim in the word of economy, bin Nabi.

مقدمة

في خضم الحياة الاقتصادية التي نعيشها جميعاً، غالباً ما يكون اهتمام الفرد يتمحور حول كيفية التحسين من مستوى الدخل المادي له ولأسرته لينعم بمستوى أفضل من الخدمات الأساسية لتلحقها الثانوية، ويرسم لنفسه جداراً من الأمان يكون حماية له ولأسرته من أي طارئ قد يطرأ له أو لأسرته، ناهيك عن من يحاول ملاحقة كل جديد في أنماط الاستهلاك، سواء أكان بارادة شخصية نابعة من دراية بالمقصود والمأمول من كل إنفاق، أو كان مجرد اتباع لسياسة القطيع، والتي غالباً ما تُرسم مراحل سيرها من قبل تلك العقول التي كانت ومازالت مهمتها خلق الحاجات، وهنا نعود إلى السؤال: (كيف أستطيع أن أزيد من دخلي؟) وبعبارة أخرى تستهوي طلبه الاقتصاد وإدارة الأعمال (كيف أقوم بمشروعي؟) والذي غالباً ما يحظى بالإجابة التي أريد لها أن تكون الإجابة الصحيحة: يجب علينا الحصول على المال، للقيام بأي مشروع من شأنه أن يكون الرافعة الاقتصادية في حياتنا. والسؤال الذي يتوجب علينا طرحه أولاً، هل نحن فعلاً بحاجة المال ليجلب لنا المال؟

وتكون المسألة ذات أبعاد أكبر؛ إن كان يتبنى أصحاب القرار في الكثير من بلدان العالم الثالث يتبنون تلك الإجابة الصحيحة. والمؤسف أن البعض لا يكتفي عند مسألة التبنّي، لا بل ويرى نفسه بأنه على حق إن كان قد قَدّم تلك الإجابة الصحيحة، لتكون له تأشيرة الدخول إلى عالم الديون الخارجية، وإذعان للدائن بكل شروطه وهذا ما يحدث للأسف، فقد ذُكر في مدونات الجزيرة تحت عنوان **التسوّل كوسيلة لتمويل التنمية** "لفت انتباهي في خطاب أحد قادة الدول الأفريقية ماكي سال - رئيس السنغال - وهو يتكلم شاكياً أن صندوق التنمية الذي وعدت به منظمة التعاون الإسلامي لم يستكمل إلا جزءاً بسيطاً من ودائعها الموعودة: وهذا الجزء لا يسمن ولا يغني من جوع. وكان محور اهتمامه في الخطاب على هذا الصندوق الاستثماري التنموي، الذي لو تحقق كما قال فإنه سيغير حال الدول الإفريقية عامة والسنغال خاصة وينقلها من الفقر إلى الغنى ومن التخلف إلى التقدم. وأكمل سال خطابه حاثاً الدول الإسلامية على الإسراع بالوفاء بوعودها من أجل إنقاذ عملية التنمية في بلاده. وقال إن أخوتكم المسلمين في انتظار نقودكم من أجل أن يستثمروا ثروات بلادهم ويحققوا المعجزة الاقتصادية التي هي قاب قوسين أو أدنى من التحقق، ولا ينقصها سوى الأموال السائلة الجاهزة كوقود لعملية التنمية. ورغم أن جميع الدول الإفريقية، بما فيها السنغال،

دول غنية بالثروات الباطنية والزراعة والمياه والقوة البشرية العاملة الفتية المتعلمة والعاملة، فإن جميع هذه الدول تقريباً تنتظر المال الجاهز لكي تباشر عملية التنمية الاقتصادية. والتي بدون هذا المال كما يتوهمون، لا يمكن -عقلاً ومنطقاً- قيام تنمية البنية". (الخضر، 2017)

والسؤال هنا إن كان ما ستحصل عليه إحدى الدول، كدين بشروط خاصة أو هبة - بغض النظر عن أبعادها- هل هذا هو ما يلزمها؟ وهل فعلاً هي بحاجة المال لخلق المال؟ وبهذا تجدر بنا الإشارة إلى أن سؤال: من أين نبدأ، وكيف نبدأ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات مازال سؤالاً موجوداً ويتوجب علينا نشر الإجابة الصحيحة الواعية عنه، بدلاً من تلك التي أريد لها أن تكون صحيحة (المال أولاً) لتدُمّر الأفراد وبالنتيجة الشعوب.

" ولكن كيف يحدث هذا؟ كيف يمكن العمل بدون مال؟ وكيف تنشأ المشاريع المتعددة الأغراض والأهداف بدون سيولة نقدية كافية؟ الجواب يكمن في اكتشاف المغالطة الفادحة في السؤال نفسه. فكل تلك الأسئلة صحيحة في حالة المستثمر الفرد أو المؤسسة الشخصية، لكنه غير صحيح نهائياً في حالة الدولة التي تستطيع تنظيم كافة الجهود والموارد المتاحة والمتوفرة أساساً (العمل - الثروات المادية المتنوعة - الوقت) وتستطيع تحريك هذه الطاقات ابتداء من قدرتها التنظيمية كدولة وثقة شعبيها فيها وفي الآليات التي تسيّر عملية استثمار الموارد المتاحة كطباعة محدودة مدروسة للنقود مع ضمان ضخ هذه النقود في مشاريع مهمة ذات آثار ارتدادية فعالة في تنشيط باقي مناحي الاقتصاد ". (الخضر، 2017)

وكان لمالك بن نبي -الذي كان مهندساً للفكر قبل أن يكون مهندساً كهربائياً- اسهام بارز في وضع الترتيب الطبيعي الذي يؤكد على أن المال سيكون نتاج العمل. وليس العكس بصحيح، حيث يقول " إن الأقدار لم تظلم أحداً، وإنما تقوم الأمور على سنن لا تغيير لها، تربط المسببات بأسبابها، سنة الله في خلقه، ولغيرنا أن يسميها القوانين، فلا يضرننا. فمن يعتقد أنه يعطل الأسباب؛ يبوء بالفشل على حدّ سواء هو ومن يخطئ في ترتيبها الطبيعي في أطراد جدلي لا يسمح بوضع النتيجة قبل سببها، كما لا يسمح بوضع المحراث قبل الثور ". (بن نبي، 2016)

يهدف المقال إلى الإجابة على السؤال الأساس الذي يطرحه ألا وهو: من أين يبدأ المسلم في عالم الاقتصاد؟ لينتقل إلى الأسئلة التي تتولد عن إجابة السؤال الأول وهي: كيف يبدأ؟ ومتى؟ وذلك من خلال عرض لمحة بسيطة لحياة من اتخذ من الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد:11] ديدناً له في جميع كتبه: المُفكر مالك بن نبي. لينتقل بعدها لعرض المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها فكره من خلال مناقشة أفكار كتابه (المسلم في عالم الاقتصاد)، حيث سيتم بحث الموضوعات الأساسية التي تناولها في كتابه، لبدأ المقال بعرض صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم، كون التاريخ يعيد نفسه -وذلك لا يخفى على قارئ التاريخ- ليوضح فيما بعد ما هو مفهوم الاقتصاد والاقتصادانية عند ابن نبي، ثم يطرح السؤال التالي: هل الصناعة أولاً وماذا عن الندرة؟، لينتقل للأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ثم يناقش كلاً من (العمل) و (المال) و (رأس المال)، ليشرح فيما بعدها فرضية إعادة بناء مدينة نيويورك لو دمرت! ليفرق بين الإمكانات المادية والاجتماعية للولايات المتحدة، ثم يناقش مفهوم الحركة الاقتصادية ومبادئها: عمليتي الإنتاج والتوزيع، والموروث الثقافي، ومعادلات الواقع الإنساني، لينتهي بثنائية السماء والتراب وما بينهما.

وبهذا يكون المقال قد تناول كتاب المسلم في عالم الاقتصاد عند بن نبي محاولاً بذلك التركيز على ما أراد له بن نبي أن يشكل الذرات الأساسي لبنية المسلم في عالم الاقتصاد، وكيف أن تلك الذرات بتكاتفها ستوضح المعادلة التي يقوم عليها المسلم في عالم الاقتصاد، سواء على مستوى الأفراد والأمم.

الأول: مالك بن نبي، حياته

الطفولة: ولد بن نبي في اليوم الأول من تشرين الثاني / نوفمبر، عام 1905 م، (4 رمضان 1323 هـ) في مدينة قسنطينة بالجزائر، وكان الابن الوحيد لوالدين معسورين، وأخًا لثلاث شقيقات. عاش منذ سن مبكرة مع خال أمه وزوجته العاقرين الذين تبنياه، كان والد مالك خريج المدرسة الرسمية التي كانت تدرس باللغتين، العربية والفرنسية وإليه يعود الفضل في تشجيع ابنه على الدراسة في فرنسا، وتزويده بالمال لعدة سنوات رغم ظروفه الصعبة. عندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى كان مالك قد بلغ التاسعة من عمره، وقد عانت أسرته وأهل بلده من صعوبة الحياة، وفي المرحلة الابتدائية يذكر ابن نبي أن نجاحه فيها لم يسلم من التمييز العنصري، فمع أنه حصل على أعلى الدرجات طوال السنوات الأخيرة من دراسته الابتدائية، فإنه لم يمنح الأولوية التي يستحقها على طلاب فصله، بل منحت لزميله الفرنسي (بريون، 2010)

الشباب: التحق ابن نبي في عام 1921 م بمدرسة قسنطينة الثانوية التي تحولت فيما بعد إلى ما يسمى بالمدرسة الفرنسية الإسلامية، التي أنشئت أصلاً لتزويد الإدارة الفرنسية بطبقة من الموظفين وكانت الدراسة فيها باللغتين الفرنسية والعربية، وقد أشار ابن نبي في مذكراته إلى انسجامه الكامل مع مسيو مارتن الذي كان يدرس الفرنسية وأدبها بطريقة غرست فيه حب القراءة ونمت ذائقته الأدبية والبلاغية (بريون، 2010) وانكب ابن نبي على الأدب فقرأ روايات جوليس فير¹، وبيير لوتي²، وكلود فارير³. دأب بن نبي في مطلع شبابه على حضور الحلقات العلمية التي كانت تعقد في الجامع الكبير بقسنطينة، وتلقى علوم العربية على يد الشيخ عبد المجيد الذي ترك أثرًا في نفسه وفكره بما كان يتميز به من نظرات نقدية للواقع الجزائري؛ إذ كان ينتقد الطرقيين، ويهاجم ممارسات السلطة الاستعمارية في البلاد، وإلى جانب ذلك اتصل بالأدب الحديث فعرف شعر المهجر وقرأ لجبران وأبي ماضي. (بن نبي، 1970)

كانت الصحف إحدى وسائل ابن نبي للاطلاع على واقع وطنه والعالم، كانت هذه العوامل على اختلافها وتنوعها هي الخيوط التي بدأت تنسج شخصية ابن نبي في العقدين الثاني والثالث من عمره، وهو ما جعله واعيًا بالتشكلات الجديدة في مجتمعه الجزائري المتحول من التقليدية المستقرة إلى أنماط غير مستقرة أملت نتائج الحرب العالمية الأولى والاستعمار الفرنسي بكل مساوئه، ولذلك كانت مذكرات (شاهد القرن) سجلًا نابضًا في المستوى الأدبي والتاريخي بما تصوره من تغيرات اجتماعية وثقافية واقتصادية، أدت إلى تفكك المجتمع الجزائري وهو ما عانى منه ابن نبي شخصيًا؛ إذ واجهت أسرته الفقر، وفقد جده أمواله وأملأكه، وظهرت مشاكل الهجرة من مدينة إلى أخرى، ومن الجزائر إلى غيرها، كما شهد ابن نبي في مطلع شبابه انهيار الطبقة الوسطى التي كانت تؤلف لحمة المجتمع وتجسد قيمه. (بن نبي، 1970)

بلغ العشرين من عمره عندما أكمل تعليمه الثانوي، ومع ذلك فقد كان تصوره لمستقبله غير واضح، فسافر إلى فرنسا للبحث عن عمل، وهناك حصل على عمل عضلي، فكانت تجربة مرهقة عاد بعدها إلى وطنه وقد أتعبتة المغامرة، وأغضبه استغلال الشركات الفرنسية للعمال الجزائريين. (بن نبي، 1970)

الحياة في فرنسا قبل أن تقيم فرنسا احتفالها بمرور قرن على احتلال الجزائر عام 1930 م، قرر ابن نبي السفر إلى فرنسا للدراسة، وفي باريس قرر ابن نبي الالتحاق بمعهد اللغات الشرقية، ولكن عندما تقدم لامتحان القبول لم تكن النتيجة إيجابية، وقد نصحه مدير المعهد بألا يحاول التقدم للامتحان مرة أخرى، وقد جعله هذا الموقف يدرك ((بأن الالتحاق بالمعهد لا يخضع بالنسبة لجزائري مسلم لمقاييس فكرية، بل سياسية)) (بن نبي، 1970) ؛ ولذلك التحق بمعهد الهندسة الكهربائية فما لبث أن وجد نفسه مفتونًا بالعلوم التي تعد مفتاح الحضارة الغربية، وهكذا أصبح متحضرًا لاكتشاف قوة العلم التقني، وما يمكن أن يفعله في حياته وحياة أمته، إذ لم تغب عن ذهنه حالة التخلف التي تعيشها

¹ جوليس فيرن (1828 هـ - 1905م): مؤلف مغامرات منسوجة على منوال الخيال العلمي. وقد كان لها أثر في انتشار بعض الحقائق العلمية في تلك المرحلة.

² بيير لوتي (1850 هـ - 1923 م): روائي فرنسي كتب بعض روائع أدب الرحلات، كانت معظم رواياته رومانسية تصور مغامرات عاطفية جرت في بيئات شرقية أو استوائية، ومن أشهرها رواية أزياد التي جرت أحداثها في القسطنطينية عام 1879 م. وكان لوتي على علاقة مع السياسي المصري ن مصطفى كامل الذي شجعه على زيارة الشرق الأوسط والكتابة عنه.

³ كلور فارير: روائي فرنسي عُرف بتميز أسلوبه الأدبي.

أمتة، لدرجة أحس معها بأنه سيكون منقذها المرسل. وفي الثلاثينيات، حينما كان ابن نبي يتردد على وطنه الجزائر لزيارة أسرته، كَوّن علاقات طيبة مع عدد من العلماء والمتقنين الجزائريين داخل البلاد، مثل الشيخ العقبي الذي اعتبره في مرحلة ما أكثر أهلية لقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ابن باديس. (بن نبي، 1970)

الثاني: مدخل لفكر مالك بن نبي

تحليل ابن نبي للأحداث التي كانت تحيط به وثقافته أعطته القدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء، فوضع كتيبه جميعها تحت عنوان: (مشكلات الحضارة). وكان من نتاجه الفكري كتابه (المسلم في عالم الاقتصاد)، الذي سنتناول أبحاثه للوقوف على ما أراد له مالك بن نبي أن يكون منهج المسلم في عالم الاقتصاد.

عندما نتحدث عن المسلم في عالم الاقتصاد، من المفيد أن نلقي الضوء على كل من مفهوم المسلم والاقتصاد. فالمسلم ليس من ينتمي للدين الإسلامي باسم أو هوية أو رقعة جغرافية قد نشأ فيها، بل هو من يلتزم تعليمات الصانع في حياته الاقتصادية كما يلتزمها في ميدان العبادات، ولا فرق عنده بين أن يقف ليصلي أو يؤدي الزكاة، أو أن يكون عاملاً أو صاحب عمل منتجاً ومستهلكاً واعياً ذو قوة وتأثير، فكلاهما عبادة عندنا نحن المسلمين كما هو مفترض. والاقتصاد إن كان يُعرّف بأنه الاعتدال أو التوسط لغّة، فمحل قراءتنا له سيكون اصطلاحاً إذ يُعرّف الاقتصاد أو المشكلة الاقتصادية بأنها محاولة التوفيق بين المصادر والموارد المحدودة، والحاجات والرغبات المتزايدة باستمرار والغير محدودة، ومن هنا تنشأ مهمة علم الاقتصاد.

وبالطبع فإن ما تعارف عليه الاقتصاديون، بأن الموارد محدودة فهذا لم يكن صحيحاً، ونورد قوله سبحانه وتعالى في هذا السياق حيث يقول:

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [النحل: 18]

إن المسلم عندما فتح عينيه في عالم الاقتصاد، بعد أن نالته الصدمة الاستعمارية، لم يكن سوى قنّ يُسخر في كل عمل يريده الاستعمار، فلم يكن (المنتج) الذي يُراعى حقه، ولا (المستهلك) الذي تراعى حاجته. لقد كان أداة عمل مستمر فقط، فلم يكن لديه (وعي اقتصادي)، ومهما كان حظه في محيطه الاستعماري، كان يجري عليه قانون التقليد كما يجري على كل كائن فقد صلته بعالمه الأصيل ففقد أصالته، فكان عندئذ أميل لتقليد (الحاجات) منه إلى تقليد (الوسائل) لأنه فقد وعيه الحضاري أيضاً، فيصير في مرحلة أولى مقلداً بقدر استطاعته للحاجة التي أفرزتها حياة غيره، دون أن يفكر في صنع وسيلة إشباعها، ثم في مرحلة ثانية، إذا تحقق استقلال بلاده، يصير إلى تقليد الحاجات الواردة وتقليد الوسائل المستوردة كيما اتفق له، ولو على حساب سيادة البلاد. (بن نبي، 2016)

الثالث: صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم

يتناول ابن نبي في الفصل الأول من كتابه صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم (بن نبي، 2016) حيث يقارن بين ثنائية الشرق والغرب في الحياة الاجتماعية، مؤكداً بأن هناك فرقاً جوهرياً يتمثل في فهم مفهوم الاقتصاد في كلا المجتمعين، فبالنسبة للثاني: ما هو إلا أساس ومنطلق لجميع أوجه النشاط في المجتمع، نتج عنه تحديد دقيق لمفهوم (المنفعة) كلبنة أساس في بناء الرأسمالية ونظيرتها (الحاجة) في الماركسية؛ أما الأول: فقد تطور مفهومه عن الاقتصاد فيما يسمى بالاقتصاد الطبيعي غير المنظم، فبدلاً من أن يدرك احتياجاته الداخلية محاولاً بذلك الإسهام في تطبيق نظرية اقتصادية تلبي الحاجة وتحقق النفع، فإذا بفكرة نفسية تهيم على واقعة وتغير من نظريته لمفاهيم (المنفعة) و (الحاجة) في مقابل مفهوم (الزهد). فما كان من تلك الفكرة إلا أن أبعدته كل البعد عن أن يكون عاملاً مؤثراً في تطبيق نظريته الاقتصادية وبالتالي أن يحدد وبدقة مفهوم الحاجة و المنفعة. مما جعل واقعه الاقتصادي متخبط بين حقائق يصعب -عقلاً- تصورها في إطار زمني واحد ألا وهي (الحاجة) و (المنفعة) و (الزهد).

ذلك الإطار (الزمن) يُفرد ابن نبي كمفهوم منفصل شاعت الأقدار بإرادة الناس أن تلعب تلك الفكرة (النفسية) دورها في إجهاض دوره في الواقع الاقتصادي لذلك الجانب من العالم، بينما يأبى الجانب الآخر إلا أن يُسلمه مكانة القلب من الجسد لينظم العمل في العالم الحديث وفقاً لنظرية تايلور⁴ (Taylor) (1856 - 1915). ويؤكد ذلك مشيراً إلى أن الأقوال أو الأمثال التي تولد في مجتمع من المجتمعات إنما تُعبر وبصدق عن المنظومة الفكرية التي يحملها، ومن هنا فإن قول الإنكليز إن (الوقت نقد) لم يكن من باب العبث بالكلمات بل هو تعبير دقيق عن فهمهم الواقع المادي في مجتمعهم (الصناعي). ذلك المجتمع التي باتت تنمو جميع أوجه النشاط فيه وفقاً لإطار الزمن المادي الذي دفعهم بدوره لتقييم العمل بساعات الزمن التي يستغرقها هادفاً لتشييد صرح القوة والهيمنة على العالم، حتى باتت (المنفعة) أساس العلاقات في ذلك المجتمع. بالمقابل فإن مجتمع لعبت في ثناياه فكرة نفسية فُهمت فهم خاطئاً، لم يدرك في الوقت الصحيح بأن الزمن هو عملتهم التي لا تدخر ولكن تنفق إنفاق استثماري تجعله قادراً على البناء والعطاء؛ جعلته يوصف اليوم بما يُعرف ببلدان العالم الثالث.

ومن هنا كان تفسير ابن نبي بأن عجز بعض الدول الإسلامية عن تحقيق استقلالها الاقتصادي بعد أن حققت استقلالها السياسي، كان نابغاً من عدم وعيها سواء التليد منه أو المفتعل بما يتوافق ومنظومة مجتمعها الفكرية، فاستشارة الطبيب (المنتدب) في علم الأمراض الاقتصادية ليست كما يحدث في ميدان الطب من اختصاص الدكتور بتعبير ابن نبي. ونحن نرى -والواقع يؤكد- بأن على الطبيب سواء في علم الأمراض الاقتصادية أو حتى الصحية منها، عندما يتعلق الأمر بمصير الأمم والمجتمعات إن تعذر علينا إيجاد الطبيب (المحلي) وكان لابد من الانتداب فعلى المنتدب أن يكون على دراية ووعي تامين بالحالة موضوع العلاج، وأسباب المرض على مستوى الجذور مع إحاطته بالبيئة الخاصة بها، هذا كله في حال كان ممن يؤتمن جانبه.

وهذا ما أكدته ابن نبي بعبارة "إن مبدأ اقتصادياً لا يمكن أن يكون له أثره، ومقدرته التامة على التأثير إلا في الظروف التي يتفق فيها مع تجربة اجتماعية معينة". وهذا ما نحن بحاجة أن نوصله إلى عقولنا الاقتصادية، فعندما يكون المنطلق لتلك العقول الاقتصادية هو علم الاجتماع الخاص بالحالة قيد المعالجة، تدرك هذه العقول بأن أي علاج سيتم تركيبه للحالة موضع العلاج يبدأ من الأساس الاجتماعي والأفكار النفسية الخاصة بها، وذلك قبل وضع المقاييس الدقيقة للمركبات المشاركة في تكوين العلاج الاقتصادي على مستوى الأفراد و بالتالي المجتمعات.

وقد أشار الدكتور ديفيد ر. هاوكينز⁵ (David R. Hawkins) (1927 - 2012) منوهاً لأهمية الفكرة النفسية التي أشار إليها ابن نبي، في كتابه: (السماح بالرحيل) تحت عنوان: (تأثير العقل). مستشهداً كذلك بالقول المأثور (الجسد يتبع العقل) حيث يقول: "يميل الجسد إلى إظهار ما يؤمن به العقل الذي قد يتمسك باعتقاد ما سواء بالوعي أو اللاوعي". ويضيف بأن الفكرة ((شيء)) لديه طاقة وشكل، والعقل بأفكاره ومشاعره يتحكم بالجسد وكي تشفي جسدك فإن أفكارك ومشاعرك تحتاج أن تتغير. (هاوكينز، 2018)

وبهذا نستطيع صياغة القول التالي: (الاقتصاد يتبع الفكر). وكي نشفي اقتصادنا فإنه علينا تغيير أفكارنا النفسية، ذلك من شأنه أن يغير النتيجة إن توفرت النية الصادقة (الإرادة الجازمة) و القدرة التامة مع انتقاء المانع (سعيد، 1993)

الرابع: الاقتصاد والاقتصادانية

بعد اطلاعنا على مفهوم الاقتصاد اصطلاحاً؛ فما هي الاقتصادانية التي أراد لها ابن نبي أن تكون واضحة المعالم في عقولنا؟ الاقتصادانية أو المعاشية: أشبه ما تكون بالصبيانانية التي كانت صفة لازمة لأكثر العقول التي تسعى في محاولة إيجاد حلول اقتصادية لبلدانها ومجتمعاتها؛ إن فرضنا - جديلاً - صدق نيته المترافق بضعف في الوعي. فكانت مهمتهم السعي في محاولة تطبيق الوصفات الاقتصادية الجاهزة (المستوردة) كما هي، ظناً منهم بأنها الحل لإنعاش اقتصاد البلاد والنهوض به - تلك الوصفات التي طبقت في بلادها - فبعد خلاصهم من الاستعمار الذي

⁴ مهندس ميكانيك أمريكي سعى لتحسين الكفاءة الصناعية، يعد أبا لعلم الإدارة.

⁵ دكتور في الطب والفلسفة، وهو الرئيس المؤسس لمعهد الأبحاث الروحية ومؤسس (Path of Devotional Nonduality) ويعرف بأنه رائد في مجال الوعي، فضلاً عن أنه مؤلف ومحاضر وطبيب إكلينيكي ونفساني وعالم.

كان على أراضيهم، فتحوا عقولهم لنوع آخر من الاستعمار لكن هذه المرة بقبول، لا بل وباستجداء في بعض الحالات. أتى هذه المرة ليفرض من جديد هيمنته واستبداده من خلال إدارة العقول واستغلال الشعوب. كما حدث ذلك مع أصحاب السواعد السمرء (من يعمل في الزراعة) فبعد تحررهم من المستعمر الذي جثم على قلوبهم قبل أراضيهم جاء المشرع الاقتصادي ليفرض قيوداً جديدة تسلبهم أنفاسهم الأخيرة، والمشكلة لم تكن تتمثل في الاستعمار بمختلف أشكاله بل بالقابلية للاستعمار. (نبي، 2017)

و إن أردنا أن نبحت التخلف كنقص في الوسائل على الصعيد الاقتصادي؛ يعود ابن نبي ليؤكد على الجانب النفسي الذي نتج عنه سوء انتفاع بتلك الوسائل بعد الحصول عليها، وهنا يشدد على ضرورة الثورة الثقافية التي ترشدنا لنطرح الأسئلة التي يجب طرحها عند استجلاب الوسائل ألا وهي: ما مدى حاجتنا لتلك الوسائل؟ وما مقدار المنفعة المترتبة منها؟ وهل نستطيع إيجاد البديل؟ الذي يبعدنا عن شروط المنتج التي في الغالب ما تكون إلا مطية لتحقيق مآرب أخرى قد توصلنا إلى (استنزاف مواردنا) والتعلق الدائم بأصحاب الحلول (المنتجين للوسائل). ما نريده هو أن نتحرر من سلطانه لنعود للسلطان الاجتماعي بتعبير ابن نبي؛ السلطان الاجتماعي الذي يتمثل بمعادلة تتكون من ثلاث عناصر وهي (الإنسان + الأرض + الزمن). هذه المعادلة فاعلة مادامت الحياة وتبعدنا عن سطوة السلطان المالي الذي قد لا يتوفر دائماً، ناهيك عن سطوة المنتج، وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أن البداية لم تكن يوماً بالسلطان المالي كما أرادت بعض العقول أن ترسم نقطة وحيدة لكل بداية. فتوعية الإنسان المسلم في الميدان الاقتصادي، يجب ألا تجره إلى وثنية جديدة ليصير من عبّاد صنم جديد اسمه (الاقتصادانية) أو حتى الاقتصاد (بن نبي، 2016)

الخامس: هل الصناعة أولاً وماذا عن الندرة.

كثيراً ما تتعالى في المنتديات الاقتصادية أو حتى بين الدارسين لعلم الاقتصاد عبارة: علينا بالصناعة كي ننهض اقتصادياً ولنبدأ بالتنمية. فهل هذا هو ما نحن فعلاً بحاجة؟ وهل هو بنسبة معينة؟ أم أن هذه العبارة تخفي في طياتها الأساس النفسي المبني على تبني سياسة ذلك الجانب الغربي من العالم، فكوننا رأينا والتجربة هنا مبنية على المشاهدة بأن من قامت نهضته على الصناعة بات من القوى الاقتصادية في العالم. وبهذا سمحنا لهذه الفكرة أن تؤثر بنا وتغلق أمامنا باب التفكير بالمنفذ الآخر. وهذا ما أشار له ابن نبي بأن "فقدان الصناعة لا يفسر كل شيء في عالم الاقتصاد". وإن أردنا أن نبدأ بالصناعة فعلينا بالمال، وللحصول عليه نعود لسطوة من أراد أن نتبنى هذه الفكرة ونؤمن بها ويسمح لنا بفتح باب طلب الديون الخارجية كونه ليس لدينا المال الكافي لنبدأ كما تمت برمجتنا، فإن هذا قد يفتح باب (التهلكة السياسية) في الكثير من بلداننا على مصراعيه. كما يؤكد ابن نبي على أن القيمة الأولى في نجاح أي مشروع اقتصادي ليس مقدار ما رصد له من موازنات بل هي الإنسان (بن نبي، 2016)

إذاً فالنهوض الاقتصادي لم يكن يوماً مشروطاً بالصناعة ولم ينزل بذلك قيد من السماء، وأن مشكلة الندرة التي على علم الاقتصاد أن يعالجها تم إظهارها على أنها قانون منطقي غير قابل للنقد أو حتى النقاش، وننس بذلك أن الله جل جلاله لا يظلم أحداً ولم يخلق أمة من الأمم لتلعب دور الضحية ولتبقى تابعة أو مُستَغلة من قبل الأخرى، فمشكلة الندرة (الكذبة المنطقية) يحضنها قانون منشأ الأكوان:

وَأَتْلُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم: 34]

إذاً فالمشكلة الاقتصادية لم تكن يوماً من الأيام قلة في الموارد، ولكن أساس المشكلة الاقتصادية يكمن في ظلم الإنسان لأخيه الإنسان (إقبال، 2020)

إضافة إلى ذلك فإن نقطتنا الأولى للنهوض الاقتصادي - سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات - هي الإنسان، هذا الإنسان الذي يتكون بمرور الزمن بمجموع الأفكار التي يحملها يتبناها و يؤمن بها، فإذا ما استطعنا الاهتمام به بالحفاظ على قيمته وزيادة وعيه نكون بذلك قد رسمنا الخطوط الأولى لنهضته و رقيه، وبالتالي نهضة و رقي مجتمعه. ولأننا نعرض القضية بعيداً عن الأرقام و الإحصاءات، فعلياً عرضها ليس كمن يصف شيئاً موجوداً، بل كمن ينشئ شيئاً مفقوداً، أو يحاول إنشاءه على أقل تقدير فالمسألة ما هي إلا إيمان بالفكرة (بن نبي، 2016)

السادس: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد

الحركة التي تنبع عن التصور السليم تؤدي إلى نتيجة مثمرة، وهذا ما يجب أن يكون واضح لدى المسلم في جميع عوالمه، وكوننا نلامس في مقالنا هذا عالم الاقتصاد لديه، فما هو التصور السليم الذي سيُنتج لنا الحركة الفاعلة وبالتالي نحصل على ثمارها؟ كون التصور يسبق الحركة وهذا ما يجب أن يكون منطقاً فإن ما يسبق التصور هو الفكر (الخضر، 2011). ومن هنا تحدد نقطة البداية. هذا الفكر الذي - إن صح التعبير - هو ما يسمى (المفاعل النووي الداخلي) الذي إن تمت إدارته وحمايته بشكل صحيح فسيكون مصدر القوة للفرد و أمته على حد سواء، وهذا الفرد عندما يعي وبدقة مهمته في هذا الكون فإن كل شيء في عالمه سيتغير ابتداءً من عالم الاقتصاد، الصناعة، الزراعة، وحتى التجارة، وبالتالي هذا الوعي سيكون مصدر التغيير حتى على الشيء المصنوع/المنتج والفكرة الدالة على صناعته/إنتاجه. (بن نبي، 2016) وهذا كله يبدأ من تأثير النفوس ذاتها طبقاً لقوله جل جلاله

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: 11]

والمطلوب من المسلمين والاقتصاديين منهم على وجه التحديد أن يدركوا أن الاقتصاد لم يكن يوماً إنشاء بنك وتشبيد مصنع فحسب، بل هو في الأساس إنشاء من سيقوم بإنشاء ذلك البنك والمصنع، (بن نبي، 2016) إنشاؤه بفكر متحرر عن كل القيود التي رسمتها العقول التي تنشر مفهوم الندرة في هذه الدنيا وتسعى لتفعيل آثاره. إنشاؤه بفكر قادرًا على استعمال المتاح والمتوفر لينهض بنفسه وبأتمته، فهو يعلم من إيمانه بفكره ودوره في هذه الحياة أنه (الإنسان) كان وما زال المُكَلَّف بأعلى منصب على مستوى الأمة، حيث صدر بيان تعيينه بقوله جل جلاله

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [البقرة: 30]

هذا الخليفة في الميدان الاقتصادي يعلم أن ما عليه فعله هو فقط عدم ادخار جهد وسعي في سبيل البناء والارتقاء لا الرضوخ والاكتماء. يذلل كل الصعاب لعلمه بمدى حيادية قوانين هذا الكون إذ قال سبحانه وتعالى:

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِثُ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ [آل عمران: 195]

وكونه يعي أهمية دوره، فهو لا يكتفي بالعمل بل و يسعى لأحسنه، وإن حصل وشاءت الأقدار مغالبتة لاختبار مدى صدقه تجده يتمثل قول الشاعر⁶:

وإذا العواصف حجبت وجه السما جدل العواصف للسما أسبابا

هكذا يربط بن نبي بين السبب والنتيجة مبرهناً بأنه لن تكون هناك أي نهضة اقتصادية ما لم يسبقها نهضة روحية نفسية تتمثل في الإرادة التي تكون أساسها محطة الانطلاق التي يليها فيما بعد محطة الوسائل والذي أشار إليها بالإمكان، وبمكننا القول إن الإيمان بالفكرة الذي يؤد الإرادة فالحركة، هو ما يعول عليه في المسار الاقتصادي (بن نبي، 2016)

أما عن الاقتصاد والحضارة؛ فالحضارة: ماهي إلا تمثل لراقي المجتمع وتقدمه على الصعيد النفسي والاجتماعي والعلمي والأدبي. وإن كان الظاهر بأن التطور والتقدم على المستوى الاقتصادي يُنتج الحضارة إلا أن العكس هو الصحيح. والحضارة لها جانبان: جانب يتضمن شروطاً معنوية، والآخر يتضمن شروطاً مادية. أما الأول فيتمثل بالإرادة الجازمة، والثاني يتمثل بالإمكان القائم على الوسائل المتاحة. (بن نبي، 2016) إذاً لكي نتقدم اقتصادياً علينا أن نبدأ بالحضارة وتحديدًا بجانبها المعنوي وبهذا نجد أن الجانب الآخر يتمثل بالظهور.

فالعلاقة النسبية بين الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية علاقة سببية، تضع (الإرادة) في رتبة السبب بالنسبة إلى الإمكان. ولوعدنا إلى عالم الاقتصاد بهذه الاعتبارات، فإننا لا نرى عالم الكميات وعالم الأرقام إلا في الرتبة الثانية، أي بعدما تبعث فيه الإرادة الحضارية الحركة والحياة. (بن نبي، 2016)

⁶ إيليا أبو ماضي: شاعر عربي لبناني يعد من أهم شعراء المهجر في أوائل القرن العشرين، وأحد مؤسسي الرابطة القلمية.

السابع: المال والعمل ورأس المال

المغالطة الفادحة التي نحاول رفع الستار عنها تكمن في أن الصورة الذهنية التي تشكلت في أذهان أبناء المجتمع قلبت الحقائق لتجعلهم يشعرون ويصلون إلى حد الإيمان أن العمل يحتاج إلى المال أو رأس المال كيداية لخطوتهم الأولى نحو نجاحهم الاقتصادي، بيد أن رأس المال الحقيقي ما هو إلا قدرة فكرية تدرك إمكان التحويل (دي سوتو، 2009)

وإلى الآن ما زلت أذكر كيف شرح لنا الدكتور في مادة الموارد البشرية - ونحن على مقاعد الجامعة - بأن كلمة (رأس المال) تتكون في بنيتها من مفردتين؛ والأولى منهما ترشدنا إلى المعادلة، (رأس المال = رأس + مال) فكلنا يملك المال، وإن كان على شكل مدخرات متفرقة عديمة الجدوى الاقتصادية على المستوى الاجتماعي وعلى المدى البعيد، لكن عند إدخال الرأس للمعادلة سيتشكل رأس المال، ومهمة الرأس هي توليد الأفكار وبهذا نعود مجدداً لجذر المسألة ألا وهو الفكر.

ولتوضيح المسألة لنتصور المشهد التالي:

سكان قرية بعيدة تمتلك أرضهم أفضل أنواع التربة الصالحة للزراعة، يعمل معظمهم في المدينة كأجراء عند الباعة والصناع، يمتلكون حلما بزراعة تلك الأرض، وكلما اجتمع أهل القرية ووجهواها توصلوا إلى أن ما يدع حلمهم حبيس خواطرهم هو عدم قدرتهم على إحضار المعدات الخاصة بالزراعة كالمحراث الآلي الكبير وشبكات الري... إلخ. وهذا ما يقتل ذلك الحلم.

والآن دعونا نقوم بدراسة حالة أهل هذه القرية بحثاً عن الخلل الذي وقف في وجه تحقيق حلمهم. وفقاً للمعطيات المتواجدة فإن الفكرة السائدة عند الجميع هي عجزهم عن زراعة أرضهم، هذه الفكرة ناتجة عن التفكير بما يفتقدون مقابل ما يمتلكون، وتركيزهم على عدم قدرتهم على شراء المعدات أوقف كل شيء وأبقى الأرض بائرة.

بعد معرفة موضع الخلل وسببه، ما هي التوصية التي ممكن أن نقدمها للمسلم في عالم الاقتصاد في هذه القرية؟ لا بد لنا عند وقوعنا في المأزق من دراسة جميع الحلول الممكنة عقلاً ومنطقاً. فنسرد بعض الحلول المقترحة ومنها:

- 1- قيام جهاء تلك القرية بدعوة الناس لجمع مدخراتهم الشخصية في محاولة لجمع ثمن تلك المعدات.
- 2- قيام أهل القرية بتشكيل لجنة من شأنها بحث إمكانية شراء المعدات اللازمة بالتقسيط.
- 3- محاولة الحصول على قرض "بفائدة" لشراء تلك المعدات، وكونهم أهل قرية - طيبة - يستبعدون هذا الخيار.
- 4- محاولة تطبيق عقود المزارعة و المساقاة لاستثمار أرضهم.
- 5- بيع الأرض.

وإن أردنا المبالغة التي تجعل جميع تلك الحلول غير قابلة للتنفيذ، وابتعدنا عن العقل والمنطق، هل نتخيل أن تحرث تلك الأرض بالملاعق وتسقى بالأكواب؟! هذا تماماً ما أراد أن يصفه روجيه غارودي⁷ (Roger Garaudy)

(1913-2012) بقوله "لنكن عاقلين ونحلم بالمستحيل" فالمسألة تكمن في جعل القضية، قضية حياة أو موت، قضية حياة أو موت تجعل من يمتلك الحلم ويؤمن به قادراً على تنفيذه ليقول: (لنكن عاقلين وننفذ المستحيل)، وبشكل خاص إن كان قادراً على حشد الطاقات الفردية وهذا ما عبر عنه بن نبي بقوله: ليست القضية قضية أماكن مالي، ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الإنسان والتراب والوقت. (بن نبي، 2016)

الثامن: نيويورك وإعادة الإعمار

يطرح بن نبي في كتابه المسلم في عالم الاقتصاد فرضية مهمة، يلقي من خلالها الضوء على الفرق بين الإمكان المادي والإمكان الاجتماعي لأمة من الأمم متخذاً بذلك مدينة نيويورك عينة الدراسة حيث يقول: لو دمرت مدينة كبرى مثل نيويورك، على أثر زلزال شديد، فأننا نرى بكل تأكيد إعادة بنائها، بينما لو تأملنا في السؤال

⁷ كاتب وفيلسوف فرنسي

المطروح حسب المقترضات الاقتصادية التي يفرضها مشروع ضخ كإعادة بناء مدينة نيويورك لوجدنا أن الجواب يحتمل صورتين:

- 1- هل تستطيع الولايات المتحدة القيام بالمشروع الذي نعنيه بمجرد طاقتها المالية؟
 - 2- أم تستطيع ذلك بفضل وسيلة أخرى؟
- يجب للتوضيح أن نصوص الاحتمال الأول صياغة أخرى تفيدنا أكثر من الناحية العملية.
- فنقول هل تستطيع الولايات المتحدة شراء مدينة مثل نيويورك بكل محتوياتها الإسكانية والصناعية والفنية لتعوض بها ما حطمه الزلزال؟ إن واقع الولايات المتحدة بالنسبة للقضية المطروحة، هو أن رصيدها لا يتعدى منذ سنة 1969، عشر مليارات دولار من الذهب، أي أن طاقتها المالية المقدر بها لديها من ذهب، لا تفي بمبالغ المشروع ولا تغطيها، لأن ثمين مدينة نيويورك، مع محتوياتها الاجتماعية، سوف يكون فوق هذا الإمكان المالي مقدراً بالذهب. ناهيك عن أن دين الولايات المتحدة في أيامنا هذه وصل إلى ثلاث وعشرين تريليون دولار⁸، ونحن هنا لا نناقش قوة الاقتصاد الأمريكي المزيفة القادرة على طباعة الدولار بالكمية التي تريد سواء أكان مغطى بمقابل من الذهب أم لا. بل نلقي الضوء على الفرق بين الإمكان المادي والإمكان الاجتماعي للولايات المتحدة، ومن هنا يتبدى لأذهاننا أمران:

- 1- إن الولايات المتحدة لا تستطيع بإمكانها المالي أن (تشتري) مدينة نيويورك.
- 2- لكن تستطيع بإمكانها الاجتماعي بناء أو إعادة بناء مئات المدن مثل نيويورك. (بن نبي، 2016)

التاسع: الحركة الاقتصادية ومبادئها

تتمثل الحركة الاقتصادية بالعلاقة بين الإنتاج والاستهلاك والقائمين على كل منهما، وبناءً عليه عندما نحدد وبدقة ماهية الحاجات التي يلبيها الإنتاج. نستطيع إيجاد رسم دقيق لطبيعة التوزيع وحجمه وشبكته، والتفاعل الناتج عن الحركة الاقتصادية بين الإنتاج والاستهلاك هو ما يسمى بالديناميكية الاقتصادية. ويشير ابن نبي إلى أن الحاجة بطبيعتها تنقسم إلى نوعين رئيسيين وهما: (حاجة يغطيها المال) و (حاجة تغطيها الإرادة الحضارية) مثل الإرادة التي فرضت الزكاة، وتلك ما هي في جوهرها إلا تأسيس للفكرة النفسية التي تقوم على دعم الآخرين ومساعدتهم في النهوض. ويؤكد ابن نبي على شروط الحركة الاقتصادية بمبدأين اثنين هما:

- 1- لقمة العيش (الكرامة) حق لكل فم.
- 2- العمل واجب على كل ساعد.

ونؤكد على أن الترتيب الذي نؤمن به إنما يبدأ بالثاني ليصل إلى الأول. فما المسألة في حقيقتها إلا قصور في التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة، لا قصور في الإمكان مع التذكير بأن الإرادة تكشف الإمكان، وهذا ما يعبر عنه في المجال الاجتماعي بقولنا: إن الإرادة الحضارية تصنع الإمكان الحضاري. (بن نبي، 2016)

العاشر: عمليتي الإنتاج والتوزيع والموروث الثقافي

يقول ابن نبي: إن المجتمعات تموت غالباً منتحرة، وأن الإنسان مجبول على اتباع المنحدر إذا لم تكن وراءه قوة دافعة للأعلى، فهذا ما يميز المنحدر، كل ما هو مطلوب خطوة واحدة باتجاه الأسفل وينتهي بنا الأمر إلى الهاوية، أما الصعود للقمة يتطلب خطوات متتالية بعزم وثبات حتى النهاية، وبعد الوصول تبدأ رحلة مغالبة الرياح. إن قول ابن نبي بأن المجتمعات تموت منتحرة يؤكد رغبتها - والرغبة هنا بمعنى الإرادة - الضمنية بالموت.

وعن إرادة المجتمعات بالموت انتحاراً وعلاقتها بالاقتصاد من حيث عمليتي الإنتاج والتوزيع، فنجد تلك المجتمعات وقد ضمت حول عنقها حبل المطالبة بالحقوق متمثل بعدالة التوزيع منشغلة به عن أداء الواجب بالإنتاج والعمل. وما ضم حبل مشقة عدالة التوزيع في حقيقته إلا تعبير صريح عن طبيعة المجتمع النفسية الناتجة عن موروثه الثقافي والذي له دور كبير في التأثير عليه خصوصاً وإن غُيِّب الوعي.

⁸ <https://www.aljazeera.net/news/ebusiness/2020/3/31> تاريخ الوصول (19.04.2020)

أما عن المسلم في عالم الاقتصاد فموروثه الثقافي مفعم بإرشادات توعوية تدفعه لمعرفة الترتيب المنطقي السليم بين مسألة الحق والواجب إن هو استطاع استلام هذه الإرشادات وفهمها بشكل صحيح ليعمل بها. فها هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي لصحابي يطلب (مطالباً بحقه) ممن كان حاضراً، ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء، ثم يتكرر الطلب والعطاء للمرة الثالثة، ويأتي التوجيه ليضبط الترتيب السليم لثنائية الحق والواجب لنبدأ بالثاني فملك الأول، حيث يقول -صلى الله عليه وسلم- ((...إن اليد العليا خير من اليد السفلى)). (بن نبي، 2016)

هذا هو تحديداً ما يجب على المسلم في عالم الاقتصاد اليوم أن يدركه، فهذا المسلم (ال خليفة) الذي استطاع أن يستلم هذا المنصب ويدرك أهميته هو تحديداً إنسان يتلذذ بحمل أعباء تجاربه (الواجب) مهما ثقلت، لأنه إنسان تحركه دوافعه العلوية المقدسة. (الخضر، 2011)

وتحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفواً أو بالمصادفة، لأنه تحويل لعادات وطباع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة. (بن نبي، 2016)

الحادي عشر: معادلات الواقع الإنساني

يفسر ابن نبي الواقع الإنساني للمسلم في عالم الاقتصاد وفقاً لمعادلتين:

الأولى: إن ما يستطيعه الإنسان في الجانب الغربي من العالم هو بالضبط ما يستطيعه أخاه في الجانب الشرقي منه، باستثناء ما فضل الله به بعضهم على بعض. وبهذا ففرصهم واحدة في أغلب الحالات، وهذا ما ألقى عليه ابن نبي (المعادلة البيولوجية).

الثانية: إن البيئة (الحاضنة) التي يتواجد فيها هذا الإنسان أو ذاك تكون ممثلة بأفكار نفسية وعادات وتقاليده (موروث ثقافي) تُقبل كمُسلّمات في دستور حياته تجعل من استطاعته في كلا الجانبين فاعلة وهذا ما عرّفه ابن نبي (بالمعادلة الاجتماعية). (بن نبي، 2016)

وما يميز هذه الحاضنة أنها تزود الفرد بالهواء الذي يتغلغل في أعماقه ليجري منه مجرى الدم، فيصبح يتنفس وفقاً لذراته وهي غالباً ما تفتح له عنان السماء إن كان هذا الهواء نقياً يريد أن يغذي الإنسان لا أن يُسممه ويقتل فيه أرادة الحياة. هذا بالضبط ما يفسر نجاح طيور الشرق بعد هجرتها لحاضنة الغرب.

وهنا نجد بعض طيور المشرق التي أبت إلا أن تبقى في سمائها تحاول جاهدةً و إلى يومنا هذا في عهد أقسمت به على نفسها: أننا ولا بد سنغير هذه المُسلّمات وسنكتب دستورنا بأيدينا. ذلك أن ما عايشوه من ألم أوقد نار الوعي في بصائرهم، ذلك الوعي الذي يقول: (من يعي يتحمل مسؤولية التغيير إن توفرت له الإرادة الجازمة). ويبدؤون أول بند في دستور حياتهم في حاضنتهم الجديدة بالقاعدة التي يؤمنون بها بـ

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: 11]

الثاني عشر: السماء والتراب وما بينهما.

ما يميز المسلم التزامه لملامسة هذه الثنائية ما لا يقل عن خمسة مرات في اليوم واللييلة، فما هي هذه الثنائية (السماء والتراب)؟ وما علاقتها بالجانب الاقتصادي؟ ثنائية السماء والتراب ما هي إلا تعبير صريح لموارد هذا المسلم سواء النفسية منها أو حتى المادية. فهو يرفع يديه للسماء طالبا العون الإلهي (ليوقد في نفسه شعلة المسير لتأدية واجبه في هذه الحياة) ثم يتلمس التراب الذي فيه معاشه. ففي وقتنا الراهن إن أردنا أن نعيد اعتباراً اقتصادياً على مستوى الفرد و الأمم فما علينا إلا استثمار مواردنا المتاحة (السماء والتراب) بأفضل ما يمكن، ولا ننسى أن المسألة على مستوى المجتمعات ما هي بحاجة إلا لحشد الطاقات لاستثمار الإنسان والتراب والزمّن. وبهذا نكون قد استطعنا تركيب المعادلة التي تؤدي إلى نهضتنا الحضارية ومن ثم الاقتصادية في حال استطعنا الالتزام بها بعزم حتى النهاية.

النتيجة

بعد الاطلاع على ما أراد له بن نبي بأن يكون الصورة التي تُشكل المسلم في عالم الاقتصاد، يتبين لنا جلياً مدى اهتمامه بالقيمة الاقتصادية الأولى على حد تعبيره ألا وهي (الإنسان)، فيسعى لتحريره نفسياً وعقلياً ليقوم بعد ذلك بأداء دوره الاقتصادي في الرقعة الجغرافية التي اختير له أن يكون سلطانها. فهو - وقيل كل شيء - عليه أن يدرك من هو، وبأن إرادته النابعة من إيمانه بفكرة دوره في هذه الدورة الاقتصادية التي تبدئ باديء ذي بدء، بواجباته واستثماره لسلطانه الاجتماعي الذي تكوّن منه هو بدايةً، وتراب الأرض لينتهي بالزمن الذي كان يشكل بإحدى صورته الإنسان. عندما يدرك المسلم هذه المعادلة : (الإنسان + تراب + زمان = الحضارة) والتي هي ما يشكل للإنسان الاقتصادي نتيجة عمله المثمر، يعلم بأنه كل حل اقتصادي لا يتوافق وطبيعته الاجتماعية سيكون ذو آثار سلبية.

وبالنسبة لما حاول أن يجيب المقال عنه من تساؤلات فقد توّصلَ إلى التالي:

1- على المسلم في عالم الاقتصاد أن يبدأ من عالم الأفكار، عالم الأفكار الذي يحرره من كل معطى بشري يفرض صحته لمجرد أنه أتى من ذلك الجانب الغربي من العالم. يبدأ من إيمانه بنفسه وبمكانته وبقدرته على تغيير الواقع لأنه وببساط فقه معادلة التغيير بقوله جل جلاله

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: 11]

ذلك مع تبنيه لمقولة (الاقتصاد يتبع الفكر).

2- أما عن آليه البدء أو (كيف) يبدأ، يبدأ بوعي ممتزج بإيمان يختبر صلاحية الأفكار ولا يفترض صحتها ما لم يختبر صلاحيتها. يبدأ بإدراك واضح لثنائية الحق والواجب وأن البداية السليمة لم يُرسم خط بدايتها يوماً بالمطالبة بالحقوق، بل تبدأ بأداء الواجب، أداء الواجب اقتصادياً متمثلاً بالإنتاج والعمل ليس هدفاً للاكتفاء والبقاء بل إرادةً جازمة للارتقاء.

3- وبعد محاولة الإجابة على سؤال من أين؟ وكيف؟، على المسلم أن يبدأ في عالم الاقتصاد. يبقى لدينا سؤال متى؟ متى؟! في اللحظة التي يدرك فيها من هو (الخليفة) ولماذا خلق وما هو واجبه في هذه الحياة؟ تلك اللحظة التي غالباً ما تنتج عن ألم يوقد الوعي في داخله ليجعله يتلذذ بحمل أعباء تجاربه مهما ثقلت.

المصادر

جودت سعيد. (1993). العمل قدرة وإرادة. بيروت: دار الفكر المعاصر.

د. ديفيد ر. هاوكينز. (2018). السماح بالرحيل. بيروت: دار الخيال.

فوزية بريون. (2010). مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1970). مذكرات شاهد للقرن الطالب. بيروت: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1970). المذكرات ترجمة مالك بن نبي الجزء الثاني. بيروت: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1970). المذكرات ترجمة مالك بن نبي الجزء الأول. بيروت: دار الفكر.

مالك بن نبي. (2016). المسلم في عالم الاقتصاد. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (2017). شروط النهضة. دمشق: دار الفكر.

محمد إقبال. (2020, 03 02). مشكلة الندرة. (محمود ايزولي، المحاور)

محمد إقبال الخضر. (2011). التنمية بدءاً بالإنسان. دمشق: مركز رؤية لتطوير التعليم والتفكير.

محمد إقبال الخضر. (2017, 12 26). لتسول-كوسيلة لتمويل-التنمية-الاقتصادية

<https://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/12/26/>. تاريخ الاسترداد 12 28, 2018

هرناندو دي سوتو. (2009). سر رأس المال. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.